أشكال العنف

مقابلة مع فولفغانغ سوفسكي Wolfgang Sofsky

ألف لودتكهوفريتز كرامر Alf LÜDTKE et Fritz KRAMER

ترجمة: هيا السعدي مراجعة: محمد بن علي الزهراني

أجرى فولفغانغ سوفسكي، مؤلف كتابي "رسالة عن العنف *Traité de la violence*" و"عصر الرهبة *L'ère de l'épouvante*" مقابلة مع أحد علماء الأنثروبولوجيا والمؤرخين، إذ يشرح لماذا يفضّل التحليل خارج السياق للتكوينات والبنى الخاصة لأعمال العنف بدلًا من البحث عن أسبابه.

صدر المقال الأصلي باللغة الألمانية: فولفغانغ سوفسكي Wolfgang Sofsky، وفريتز كرامر Fritz Kramer، وألف لودتكهه Alf Lüdtke، "أشكال العنف - أفعال وصور Gewaltformen – Taten, Bilder"، الأنثروبولوجيا التاريخية - الثقافة والمجتمع والحياة اليوميةHistorische Anthropologie – Kultur, Gesellschaft, Alltag* , العدد رقم ١٢، ٢٠٠٤م، ص ١٥٧-١٧٨، لُخّص النص ليُترجم، وأُضيفت مقدمة، وملاحظات توضيحية من المترجمين فرانزيسكا هايمبورغر Franziska Heimburger، وسونيا غولدبلوم Sonia Goldblum، وسيسيل لافيرني Cécile Lavergne، وأنطون بيردونسين Anton Perdoncin، (منسّقو العدد رقم ١٩ لمجلة تراسيه *Tracés* "وصف العنف Décrire la violence"، التي يمكن الاطلاع عليها على موقع المجلة على الإنترنت: http://traces.revues.org/index4659.html).

أجرى فولفغانغ سوفسكي -كاتب وعالم اجتماع- مقابلة مع المؤرخ ألف لودتكه، وعالم الأنثروبولوجيا فريتز كرامر، عن أطروحاته، والمنهجية التي دافع بها عن اثنين من أبرز أعماله؛" رسالة عن العنف[1]" و"عصر الرهبة[2]"، يرفض سوفسكي البحث عن مسببات العنف، ويُفضّل بدلًا منها وصف أشكال بنى العنف (القتال، والتعذيب، والإعدام، والمجزرة) التي تتميز بمنطقها وديناميكياتها الخاصة، ومن وجهة نظر سوفسكي، فإن الوصف يمرّ بإخراج أشكال العنف من سياقاتها، بغرض استخلاص السمات البنيوية الشاملة لأنماط العنف وأفعاله.

وعلى الرغم من أن أعمال فولفغانغ سوفسكي المبكرة -التي لم تترجم حتى اليوم إلى اللغة الفرنسية- ركزت على مسائل السلطة والقوة[3]، لا سيما في عالم العمل، إلا أنه تحول لاحقًا، تحت تأثير نصوص

---

[1] وولفغانغ سوفسكي، رسالة عن العنف، باريس، غاليمار، ١٩٩٨م. النص الأصلي الألماني: وولفغانغ سوفسكي، رسالة عن العنف Traktat über die Gewalt، فرانكفورت لدى ماين Frankfurt am Main، س. فيشر S. Fischer، ١٩٩٦م.

[2] وولفغانغ سوفسكي، عصر الرهبة. جنون قاتل، إرهاب، حرب L'ère de l'épouvante. Folie meurtrière, terreur, guerre، باريس، غاليمار، ٢٠٠٢م. النص الأصلي الألماني: وولفغانغ سوفسكي، عصر الرهبة. جنون قاتل، إرهاب، حرب *Zeiten des Schreckens. Amok, Terror, Krie*، فرانكفورت لدى ماين، س. فيشر S. Fischer، ٢٠٠٢م.

[3] وولفغانغ سوفسكي، الثورة واليوتوبيا, ملاحظات حول نظرية التحرر في الرأسمالية المتقدمة *Revolution und Utopie. Bemerkungen zur Emanzipationstheorie im fortgeschrittenen Kapitalismus*. فرانكفورت لدى ماين، دار نشر ماكول فيرلا Makol Verl , 1971م: وولفغانغ سوفسكي، نظام المواقف الاجتماعية. دراسات حول نظرية طرق وهياكل التجربة الاجتماعية والتفاعل *Die Ordnung sozialer Situationen. Theoretische Studien über die Methoden und Strukturen sozialer Erfahrung und Interaktion*, أوبلادن

حنة أرندت Hannah Arendt، إلى البحث في مفهوم "النظام الشمولي" عبر دراسة عالم المعسكرات الاعتقالية l'univers concentrationnaire[4]، إذ لم يكرس سلسلة أعماله بشأن علم اجتماع العنف إلا في وقت لاحق، إذ بدأ رويدًا رويدًا تناول هذا العلم من منظور عام[5]، ثم تاريخي وسياسي[6]، ومنذ عام ٢٠٠١م، ترك مناصبه التدريسية في علم الاجتماع التي شغلها في غوتنغن Göttingen، وإرفورت Erfurt، ليُسخّر نفسه كاملًا لأبحاثه ومنشوراته، ونُشرت الترجمة الفرنسية لكتابه الأخير[7] الذي كان عن العلاقة بين الرّقابة، والحرية، والديمقراطية، في بدايات عام ٢٠١١م.

صُنّفت أعماله حول العنف ضمن الإطار الأكاديمي الذي جدّد المقاربات الاجتماعية للعنف في ألمانيا. ففي ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، ركّزت أغلب دراسات علم الاجتماع على تحليل عنف الدولة، وعلى ممارسة احتكار العنف الجسدي المشروع، انطلاقًا من المنظور الويبرِي (wébérienne)، إلى جانب الاهتمام بـ العنف البنيوي.

غير أنّ التحول الأول في هذا الحقل برز خلال الثمانينيات، حيث اتجه التركيز نحو تحليل العنف الفردي، وظواهر الفوضى والانحراف والتطرف. أما التسعينيات في ألمانيا، فقد تميّزت بـ عودة العنف المعادي للأجانب، ما حفّز الباحثين على دراسة العلاقات بين الشباب والعنف من جهة، وبين وسائل الإعلام والعنف من جهة أخرى. وفي الفترة نفسها، أعاد عدد من الباحثين، من بينهم سوفِسكي (Sofsky)، قراءة نصوص كلاسيكية لكلٍّ من ميشيل فوكو (Michel Foucault)، ويوهانس بوبيتز (Johannes Popitz)، وإلياس كانيتي (Elias Canetti)، مستفيدين من مقارنتها مع حقول أخرى، ولا سيّما

Opladen, ويستدي Westdt, فيرلا, 1983م: رينر لوفلرReiner Loeffler , وولفغانغ سوفسكي, السلطة, العمل والإنسانية: حالات أمراض العمل المنظمة*Macht, Arbeit und Humanität: zur Pathologie organisierter Arbeitssituationen* , غوتينغنGöttingen , دار نشر يورغن كروم Jürgen Cromm 1986م.

[4] وولفغانغ سوفسكي, منظمة الإرهاب. معسكرات الاعتقال *L'organisation de la terreur. Les camps de concentration*"، باريس، دار نشر كالمان ليفيCalmann-Lévy ، 1995م. النص الأصلي الألماني: *Die Ordnung des Terrors. Das Konzentrationslager*,فرانكفورت لدى ماين, س. فيشر,1993م.

[5] رسالة عن العنف,مرجع ذكر سابقًا.

[6] عصر الرهبة. الجنون القاتل والإرهاب والحرب، مرجع ذكر سابقًا.

[7]وولفغانغ سوفسكي، المواطن الزجاجي. بين المراقبة والاستعراض *Le citoyen de verre. Entre surveillance et exhibition*، باريس، دار نشر لارنه L'Herne، 2011م. النص الأصلي الألماني, *Verteidigung des Privaten: Eine Streitschrift,München* ميونيخ: دار نشر س.هـ.بيك C. H. Beck، 2007م.

الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا، في سبيل اقتراح برنامج بحثي جديد. وقد عبّر هؤلاء عن اعتراضهم على الدراسات التقليدية للعنف، متهمين إيّاها بأنها انشغلت بتحليل الأسباب على حساب تحليل مناهج وأفعال العنف ذاتها، وكذلك العلاقة بين الحداثة والعنف.

إذن، لا غرابة في أن يتخذ الحوار بين فولغانغ سوفكسي ومحاوريه الاثنين منحًى معرفيًّا ومنهجيًّا، إذ يُعدّ المؤرخ ألف لودتكه[8] إحدى الشخصيات البارزة في "تاريخ الحياة اليومية Alltagsgeschichte"، وهو التيار التأريخي الذي تشكّل بغرض بحث وتفسير انصياع الطبقة العاملة للأنظمة الاستبدادية (النازية خصوصًا)، والذي كان يعد أرشيفًا للممارسات، لا سيما تلك التي في العمل[9]، ولقد أصرّ ألف لودتكه مرات عدة خلال المقابلة على أهمية البحث الدقيق في الممارسات التي يتكشّف فيها العنف، وهو الجانب الذي تغاضى عنه سوفسكي متعمّدًا، كما أبدى عالم الأنثروبولوجيا فريتز كرامر[10] اعتراضاته على لودتكه بشأن أهمية دراسة ممارسات الأطراف الفاعلة المنخرطة في آليات العنف وتصوراتها، كما شكّك في النطاق العالمي لتصنيفات سوفسكي التحليلية، وتساءل عن وضع المفاهيم المستخدمة من سوفسكي (مثل الاستعارات، والنماذج المثالية، إلخ).

تتسم استراتيجيات سوفسكي في الكتابة بمحاولة إغراق القارئ في العنف الموصوف، والنتيجة أنها تكون ذات أسلوب كتابي ديناميكي قد يعده البعض فظًّا، إذ يستخدم صورة الصيد مثالًا لشرح كيفية حدوث المجزرة بعد المعارك حين يحدث الاشتباك في المطاردات، ولكن هذه الكتابة "التصورية"، هي أيضًا كتابة خيالية تمحو الحدود بين الكتابة الاجتماعية والكتابة الروائية، لتجعل القسوة والعنف الشديد ملموسين للقارئ، وأخيرًا، تنخرط كتابته مع ذكرى العنف التي تلعب فيها العلوم الاجتماعية

---

[8] يدرّس في جامعة غوتنغن Göttingen وجامعة إرفورت d'Erfurt، وهو مؤلف كتاب "ديس أوفيرز دانز لالمان القرن العشرين. *Des ouvriers dans l'Allemagne du XXe siècle*" وكتاب بعنوان الحياة اليومية للريكتاتوريين *Le quotidien des dictatures*، باريس، L'Harmattan هارماتان، 2000م.

[9] يُنظر على وجه الخصوص *Alf Lüdtke En route pour les ténèbres?* ألف لودتكه، "في الطريق إلى الظلمات؟ *Expérience de l'altérité et reconstitution historienne* تجربة الآخرين وإعادة البناء التاريخي"، في أ. أربوريو وآخرين، في Observer، A. Arborio et al (eds.) le travail. التاريخ والإثنوغرافيا والمقاربات المشتركة *Histoire, ethnographie, approches combinées*، باريس، La Découverte الاستكشاف، 2008م، ص 185-200.

[10] أثمرت أعماله الميدانية في غينيا الجديدة وكينيا والسودان والهند عددًا من المنشورات التي لم تترجم إلى الفرنسية، بالإضافة إلى مجموعة من المقالات الألمانية الأنثروبولوجية منها: فريتز كرامر، Fritz Kramer"مؤلفات في الأنثروبولوجيا *Schriften zur Ethnologie*، سوركامب فيرلاغ Suhrkamp Verlag "، Frankfurt am Main فرانكفورت أم ماين، 2005م.

دورًا رئيسًا؛ إذ تعتمد استراتيجيات الكتابة المقبولة على العلاقة الأخلاقية التي تربط المجتمع المتلقي بذاكرة الظواهر قيد الدراسة. عندما انتقد سوفسكي في تحليله لمعسكرات الاعتقال النازية أكثر أشكال الإبادة الجماعية إنكارًا وتسترًا، وتجاوز مسألة تأنيب الضمير أمام صمت السكان، والجرائم التي ارتكبها الجيش الألماني، اتُّهم بانعدام الأخلاقية وبالافتتان المرضي بالعنف، وهي طريقة ملائمة لإبعاد كتاباته عبر تشويه سمعتها.

ومع ذلك، تظلّ هناك حاجة ملحّة إلى إيجاد لغة قادرة على وصف العنف، وعلى التعبير عن الظواهر التي تبلغ حدَّ عدم الاحتمال، تلك التي تعمل عند تخوم الجسد، وحدود الحياة والموت (انظر تعليقات ألف لودتكه أدناه). فغياب هذه اللغة يعني، منذ البداية، الاستسلام للتصور السائد القائل بعدم إمكانية فهم العنف المتطرف.

الأنواع والتصنيف

ألف لودتكه: ما أهمية الأنواع والتصنيف في عملك؟

فولفغانغ سوفسكي: أولًا، علينا أن نسأل أنفسنا ما الذي يندرج تحت التصنيف، أحاول التمييز بين مختلف أشكال العنف؛ بين القتال، والتعذيب، والإعدام، والإبادة، والمذبحة وبين الأشكال المختلفة للحرب أيضًا، وإن التعبيرات الاجتماعية للعنف هي موضوع هذا التصنيف، وإن المعيار المميز هو تمثيل الأشخاص المعنيين. ففي أثناء القتال مثلًا، يشتبك طرفان، ليس بالضرورة أن يكونا متساويين في القوة، ولكن يجب أن يكون الطرف الأضعف قادرًا على الدفاع عن نفسه بطريقة ما، وهذا تكوين مختلف تمامًا عن الإعدام، إذ يكون ثمة الضحية، والآمِر بتنفيذ الأمر، والمُنفذ (السيّاف)، وغالبًا ما يكون ثمة متفرجون أيضًا، وإن هذا النوع من التفريق لا يطرح مشكلة، لكنه يوضح تعدد أشكال العنف الذي يُمارس أو الذي يمكن التعرض له، ويتيح هذا التصنيف إمكانية تنظيم المادة التجريبيّة، ويثير التساؤل بشأن ما يحدث فعلًا حين وقوع العنف، فخلف كل حدث كبير، مثل الحرب، تقبع أشكال مختلفة من العنف، فثمة مناوشات واشتباكات ومعارك ومجازر وغارات وهجمات وما إلى ذلك، فليس كل عنف المعارك عنفًا قتاليًّا. نحن عادةً ما نفهم الحرب وفقًا لتقليد كلاوزفيتز

Clausewitz، أي أنها في المقام الأول مبارزة بين دولتين، لكن الحرب أكثر من ذلك كثيرًا، وإن المذبحة ليست مواجهة أو قتالًا، بل هي ببساطة ذبح رجال لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا تخلو حروب اليوم من مجازر كبرى أصبحت هي المعيار.

وفضلًا عن تقديم هذا المنظور الأكثر موضوعية لما يحدث فعلًا، فإن التصنيف العام لأشكال العنف يجعل من الممكن وضع كثير من النظريات الصغيرة حول منطق كل شكل من أشكال العنف هذه. نقطة البداية بسيطة جدًّا؛ فمثلما ثمة أشكال اجتماعية عامة، مثل السلطة والصراع والتعاون وما إلى ذلك، فإن ثمة أشكالًا اجتماعية عامة للعنف لها منطقها وآلياتها الخاصة، وبقدر ما يمكننا القول إن للسيادة الشرعية وظائف محددة أيًّا كان السياق التاريخي لظهورها، يمكننا القول أيضًا إن القتال يأخذ أشكالًا محددة بغض النظر عن المتقاتلين وأهدافهم، في رأيي، إن للمجازر أيضًا خصائص هيكلية عالمية يمكن العثور عليها في كثير من الأماكن.

فريتز كرامر: هل يمكننا القول إنك تبني نموذجًا مثاليًّا ذا طابعٍ ويبريٍّ[11]؟

و. سوفسكي: إن أنواع ويبر المثالية ليست غير ذات أهمية على المستوى النظري؛ فهي ليست محض أنواع، بل هي نظريات ضمنية أيضًا، مثلًا، تحتوي أنواع ويبر للسيادة الشرعية على نظرية الانتقال من شكل من أشكال السيادة إلى شكل آخر، وبالتأكيد، النظريات تكون دائمًا نتيجة التجريد من التعدد التجريبي، ومع ذلك، لا أرغب في التخلي عن التطلع إلى نظرية رسمية وعامة للمجتمع.

ف. كرامر: بدا لي أمرًا جوهريًّا أن يكون النوع المثالي بالنسبة إلى ويبر يُعرّف بأنه شيء يمكن مقارنته بالواقع، ولكنه ليس مكافئًا له، بل مصفوفة تساعدنا على الرؤية بوضوح في ظل وفرة البيانات القائمة على الملاحظة.

[11] مفهوما «الويبريه»: يُقصد بهما ما يتصل بأفكار ماكس فيبر ومناهجه في فهم المجتمع وتحليل الاقتصاد والثقافة. المترجمة

و.سوفسكي: إن النظرية العامة هي أكثر كثيرًا من محض مصفوفة مقارنة، إذ إنها تتضمن تأكيد أن الخصائص الأساسية جميعها للبنية الاجتماعية يمكن العثور عليها في التنوع التاريخي. نحن نتحدث عن الهياكل العميقة لكل شكل من أشكال العنف، وليس عن بناء الحدود المنهجية، أودّ أن أعرف كيف يتم القتال بغض النظر عن الظروف، سيكون الحل هو نظرية موضوعية للقتال.

أ. لودتكه: لكن لا يزال ثمة نقطة عمياء؟ في رأيي، يمكن رؤيتها في المقارنة مع السياقات والمواقف والسلوكيات غير الأوروبية، إنني لا أقول لك شيئًا جديدًا حين أقول إن البحث يمكن أن يُظهر إدراكًا انتقائيًّا، وغالبًا ما يكون ثمة عدم اهتمام بكثير من أشكال الاختلاف (مثلًا، أشكال السلوك والتعابير الغربية، أو غير الغربية).

في كتاب نانسي شيبر-هوغز Nancy Scheper-Hughes "موت بلا بكاء"[12] *Death Without Weeping* عن العنف ضد الأطفال، تصف الكاتبة ممارسات في البرازيل والسلفادور وغواتيمالا ونيكاراغوا بأنه تقطع فيها أجساد البشر -وعلى نحو أدقّ البشر الأحياء وليس الموتى- وتُخفى الجثث، بالمعنى البسيط للكلمة، وينطوي ذلك على الاختفاء الجسدي والرمزي للبالغين والأطفال، الناتج بشكل خاص عن عمل فرق الموت، ولا نجد في تحليلك لا الشدة ولا التركيز ولا التصعيد[13] -وهي من عناصر تصنيف العنف — في تحليلك، هل يُعدّ ذلك قصورًا تجريبيًا يمكن تداركه بسهولة، أم أننا بصدد حالة غفلة أعمق، ربما ناجمة عن حقيقة أن تحليلاتك تتركز أساسًا على أشكال العنف الأوروبية، وبوجهٍ خاص على المحرقة اليهودية؟

---

[12] ملاحظة المحرر عن كتاب نانسي شيبر-هوغزNancy Scheper-Hughes، "الموت بلا بكاء: عنف الحياة اليومية في البرازيل Death Without Weeping. The Violence of Everyday Life in Brazil"، بيركلي Berkely، University of California Press دار نشر جامعة كاليفورنيا، 1992م.

[13] المفاهيم التي استخدمها سوفسكي في أطروحته عن العنف لوصف الأنواع المختلفة للعنف وكيفية تطورها. يهتم سوفسكي بشكل خاص بالديناميات الداخلية لأفعال العنف (وليس بأسبابها أو محدداتها). وعلى وجه الخصوص، فإن البعد الزمني للأفعال العنيفة هو أمر محوري، كما في التحليل التالي عن صيد البشر: "عنف القطيع هو عنف السرعة في المقام الأول، الوقت هو سلاحها الرئيسي. لطالما كان تاريخ صيد البشر تاريخًا من التسارع، تاريخًا من تطوير الأدوات المتنقلة للحاق بسرعة أكبر من أي وقت مضى بالتقدم الذي يحرزه الهاربون. [...] وفي الحرب الحديثة، فإن القوات السريعة هي التي تتحول إلى قطيع في ساحة المعركة: كانت في السابق سلاح الفرسان الخفيف، والآن أصبحت خلفاءه، والمركبات المدرعة السريعة، والقوات المحمولة جوًّا، والمروحيات القتالية"، فولفغانغ سوفسكي، كتاب 'العنف'، مرجع سبق ذكره، ص 143.

و. سوفسكي: لا يمكنني الجزم بذلك بسرعة، أولًا أود أن أدرس فرق الموت من وجهة نظر اصطياد البشر، ثم أرى ما إذا كان في عمليات الصيد هذه، جهات جماعية تتصرف كقطيع[14]، في البداية. هذه هي الأسئلة التي سأصوغها بشأن هذا المثال: هل ثمة تنافس بين الأطراف الفاعلة وهل تثير هذه الأفعال "حمى الصيد"[15]، ما الإمكانات التي يمتلكها المضطهدون، هل يعرفون حتى أنهم مصنفون كفريسة؟ هل يمكنهم اللجوء إلى مكان ما؟ ماذا يحدث إذا فروا حين تبدأ عملية الصيد؟ ستكون هذه نقطة البداية، قد نكتشف بعد ذلك أن العمل منظم، وأنه ليس ثمة مطاردة، حين يقتصر الحصار على الحي أو على منزل أو أكثر، حينئذٍ سأرى هذه العناصر حالة تجريبية وليس تزييفًا نموذجيًّا للصيد، بل ربما تشكيل فئة فرعية منه، إذا لم يكن الهيكل الأساسي للصيد، حتى لو كان صيدًا منظمًا، فهو ليس صيدًا، بل شيء آخر، ما الشيء الأوروبي المركزي في ذلك؟

ف.كرامر: هل يرى مرتكبو أعمال العنف بأنهم قطيع في رحلة صيد؟ يمكننا أن نفكر في الإبادة الجماعية في رواندا بوصفها قطيعًا في رحلة صيد، لكن المسؤولين عن الإبادة الجماعية كانوا يتصورون أن كل شر يجب أن يتدفق أو على العكس من ذلك، يجب أن يتم حظره وتصفيته.

و.سوفسكي: لا تخبرنا الطريقة التي يفكر بها الأفراد في أفعالهم إلا بقدر ضئيل عن كيفية تنفيذ هذه الأفعال، ففي معظم الأحيان، لا يعرف الأفراد ما الذي تنتجه أفعالهم. يفترض نموذج الانسيابية[16]

---

[14] النمط القديم للصيد الاجتماعي يتكوّن القطيع حيثما كان الحيوان الخطير لا يمكن صيده بمفرده، أو عندما يكون هناك أمل في صيد وفير لا يرغب أحد في التخلي عنه. ما تغير هو الهدف، ضحية الصيد. بما أن الناس لم يعودوا مجرد صيادين، فلم يعودوا يصطادون الماموث أو الدببة أو الثيران أو الخيول البرية، بل يصطادون أناسًا آخرين.
[...] ومهما تنوعت الذرائع والظروف، والمشاركون والضحايا، فإن صيد الإنسان هو شكل عالمي من أشكال العنف الجماعي. المرجع نفسه، ص 140.

[15] ملاحظ المحرر يجب أن نترجم هنا المصطلح الألماني "حمى الصيد De Jagdfieber".
وللاطلاع على هذه المسألة بشكل مفصل، اطلع على مقال برتراند هيل Bertrand Hell "نظام التدفق الوحشي Chasse et Fièvre: le système du flux sauvage" [على الإنترنت]، Terrain تيرين، 2006م، (http://terrain.revues.org/index4212.html)، تم الاطلاع عليه في 11 أيار/ مايو 2010م.

[16] يشير كرامر هنا إلى النظريات التي طورها كريستوفر تايلور Christopher Taylor في كتاب "الرعب والتضحية erreur et sacrifice". "منهج أنثروبولوجي للإبادة الجماعية الرواندية Une approche anthropologique du génocide rwandais"، تولوز Toulouse، Octarès أوكتاريز، 2000م [1999م].
للمزيد من التفاصيل حول "نظرية التدفقات théorie des flux"، انظر مقال كلودين فيدال كلودين، Claudine Vidal Claudine "رواندا 1994م" [على الإنترنت]، L'Homme، العدد 163، 2002م، (http://lhomme.revues.org/index12131.html)، تم الاطلاع عليه في 6 نوفمبر 2010م.

أن ثمة حركة يمكن منعها أو ترشيحها، فإما أن يكون المضطهَدون هاربين فعلًا، أو أن يكون المجتمع شديد الحركة بحيث يكون في حركة دائمة، حتى في الظروف العادية، في هذا التكوين فقط يمكن القبض على الرجال وقتلهم عند نقاط التفتيش.

ف.كرامر: هذا النموذج يفكر فعلًا من حيث الانسيابية، أو على نحو أدق الحركات المتدفقة بدءًا من أجساد الأفراد والمجتمع والكون، ثم تطبيقها على المسارات والحركات.

أ.لودتكه: ما هو حاسم -وفقًا لكريستوفر تايلور Christopher Taylor- هو فكرة أن ثمة تدفقات ضرورية وأن أولئك الذين يمنعون هذا التدفق، ويعرقلونه، يجب إزالتهم، يجب القضاء على العوائق، وفي هذه الحالة، لن يكون التدفق نتاج عملية صيد، فالتدفق إذن هو عملية مجتمعية أصلية تعد ضرورية، وتنظيم هذا التدفق يتطلب أفعالًا قاتلة[17].

و.سوفسكي: فليكن التكوين الأساسي للقطيع يعني انعدام وجود تضاريس ثابتة ولا حياة مستقرة، وفي حالات قليلة، تتم محاصرة قرية والبحث بدقة وحرقها وقتل أهلها، في رأيي، هذا نوع من المذابح المنتشرة ثقافيًّا، ثم ثمة ظروف مجتمعية يكون فيها الناس على الطرقات، وليسوا مستقرين، عند نقاط التفتيش، ومن الواضح أن ما ينتظرهم ليس قطيعًا، بل الجلاد، وما زلنا بحاجة إلى معرفة ما إذا كان هؤلاء الأشخاص مطاردين من قبل قطيع، حيث انطلقوا فعلًا، كما لو كانوا في نوع من المطاردة، ودفعهم نحو مناجل الحراس عند نقاط التفتيش.

ف.كرامر: وفقًا لبعض الآراء المنتشرة على نطاق واسع، فإن قبيلة التوتسي قد اندفعت من الشمال، وكان من المفترض أن يتم رفض هذه "الجهات الأجنبية" من الشمال أيضًا.

و.سوفسكي: ليست الفكرة هي التي تهمني؛ أنا مهتم أكثر بمعرفة الحالة المادية التي يعيشها المجتمع فعلًا، هل هو مجتمع هارب؟ هل هو مجتمع متنقل بلا مكان إقامة ثابت؟

[17] توجد ملاحظة المحرر باللغة الإنجليزية في النص.

ف.كرامر: من حيث المبدأ، سكان رواندا جميعًا مستقرون، لكن الفكرة القائلة بأن جماعة الهوتو كانوا مزارعين مستقرين والتوتسي رعاة رُحّل كانت منتشرة على نطاق واسع، وبوصفهم أجانب مزعومين، كان يجب إبعادهم أو القبض عليهم عند نقاط التفتيش وقتلهم، وثمة أيضًا حالات أخرى غير رواندا حيث لم تكن الصورة التي يحملها القتلة عن أنفسهم هي صورة القطيع الذي يطارد.

أ.لودتكه: في المقطع المتعلق بمسألة العنف، يشير سوفسكي في رسالته عن العنف إلى "عمل الأتباع" أو عمل الإبادة[18]، [...] أفلا يمثل استخدام استعارة المطاردة مشكلة تحديدًا لأنه يتجاهل بعض الأبعاد، مثل العمل الذي لا يمكن إنكار أنه جزء من أشكال العنف وممارسته؟

و.سوفسكي: لا أظن أنني أستخدم الاستعارة؛ فالحديث عن المطاردة والصيد ليس استعارة، فتعبير "القطيع" -الذي قدمه كانيتي Canetti[19]- يشير إلى شكل جماعة مجتمعية لا تظهر في أي قاموس لعلم الاجتماع، وحتى الوحدة العسكرية التي لا تفعل شيئًا طوال أشهر سوى محاصرة القرى واحدة تلو الأخرى والقبض على الضحايا، تتحول، في كل مرة تمر فيها إلى الفعل، مجددًا إلى قطيع، حينها تحدث تجاوزات ووحشية غير خاضعة للسيطرة، وبعد العملية، تعود لتتشكل من جديد بوصفها نوعًا من الفرق المنضبطة، إذ يمكن للأشخاص أنفسهم أن يمرّوا عبر أنماط مجتمعية مختلفة، حتى الخبراء في أعمال الاضطهاد يجب أن يزيدوا من سرعتهم حين يحاصرون قرية ما، إذ يصلون كالعاصفة ويغلقون المخارج، ثم يمكنهم أن يخففوا من سرعتهم ليفتشوا كل شارع على نحو نظامي، لذلك في "أعمال الاضطهاد" ثمة إذن تغيير نموذجي في الأشكال الزمنية والسرعات.

أ.لودتكه: لكنني أظن أن هذا مثال نموذجي، في بحثك عن "زمن العنف" ثمة بعض الملاحظات التعميمية، كيف توفق بين هذا الأمر وبين حالات محددة، مثل تلك التي وصفها كريستوفر براونينج

---

[18] ووفقًا لسوفسكي، غالبًا ما تسبق المذبحة عملية المطاردة أو القتال. هذه الأخيرة تضع حدًا للمواجهة من خلال محاولة تدمير كل آثار العدو. الهدف الأساسي للمجزرة هو الإبادة: "بالطبع، الذرائع التاريخية والأماكن والأزمنة متعددة. تختلف الضحايا، والفاعلون، والأسلحة، والأماكن، ومع ذلك، فإن طبيعة المذبحة هي عنف جماعي ضد أناس عزل، لا يستطيعون الفرار أو المقاومة. للعنف حرية مطلقة، لا شيء يجب أن يبقى، لا شيء يجب أن يذكّر الناس بمنازلهم. المجازر لا تحتمل أي ناجين يمكنهم أن يخبروا الأجيال القادمة بما حدث. تُختزل الثقافة والمجتمع إلى اللاشيء، إنها أشبه ما تكون بعملية تنظيف، عملية استئصال، عملية استئصال جذري"، فولفغانغ سوفسكي، كتاب 'العنف'، مرجع سبق ذكره، ص 158.

[19] ملاحظة المحرر تشير إلى كتاب إلياس كانيتي، Masse et puissance" الكتلة والقوة"، باريس، Gallimardغاليمار، 1966م [1960م].

Christopher Browning[20]، وما الدلالات التي تربطها بأي ثغرات؟ في التحقيق المحدد لتسلسلات معينة، يمكننا أن نرى (مثلًا، بالنسبة إلى كتيبة الشرطة 101 لبراونينج) في مثل هذا التغيير في الحالة -تبدو لي هذه الملاحظة ذات صلة وثيقة بالموضوع- لا يمكن أن تحدث على المستوى نفسه، يبدو أن الحدود تتغير، وأن تغيير الحالة يبدو أسهل وأسرع في المرة التالية، فالانتقال مثلًا من وحدة عسكرية منضبطة (بشكل أو بآخر)، تحترم بعض الجوانب الزمنية، نحو "عصابة".

و. سوفسكي: بلا شك ثمة اعتياد يتمثل في أن هؤلاء الذين يشاركون في العملية العاشرة يكونون أسرع وأهدأ، لأنهم يعرفون ما هو مهم.

مراحل وآليات العنف

أ.لودتكه : وماذا عن التغيير في أثناء مثل هذه الانتقالات؟ هل يتم رفع العتبات أو خفضها، متى ولماذا؟

سوفسكي: بالتأكيد يمكن لأفراد هذا النوع من الوحدات أن يتعلموا أولًا ردود الفعل، فحين تخوض كثيرًا من عمليات الصيد، فإنك ستعرف ما يجب الانتباه إليه وكيفية تغيير الوتيرة، ومع ذلك، لا يزال ثمة ميل إلى المبالغة، وهذا ما يخشاه القادة لأنهم يفهمون ماذا يعني انعدام الانضباط أو فقدان السيطرة، إذ يمكن للقادة أن يتركوا لرجالهم بعض الغنائم لمكافأتهم، وفي الوقت نفسه يحافظون على سيطرتهم عليهم، إن أرادوا أن يتم كل شيء بطريقة منضبطة، ولكنهم قد يقررون أيضًا -بحسب مزاج رجالهم- أن يمنحوهم قدرًا كبيرًا من الحرية لجعلهم يبقون، فيقللون من السيطرة عليهم، ويغمضون أعينهم عنهم مدة ساعتين: "لم تحدث هاتان الساعتان قط، لننس كل شيء، لا أحد يعرف أي شيء، ليصمت الجميع! تشكل الأعمال الوحشية وثاقًا، وتربطها السرية بشكل أكثر إحكامًا"، هذه الاختلافات كلها متوقعة في أوقات الاضطهاد.

[20] ملاحظة المحرر كريستوفر براونينج Christopher Browning، "الرجال العاديون Des hommes ordinaires". الكتيبة الاحتياطية 101 التابعة للشرطة الألمانية والتسوية النهائية في بولندا Le 101e bataillon de réserve de la police allemande et la solution finale en Pologne، باريس، Tallandier تالانديه،2007م [1992م].

أ.لودتكه: خاصة في حالات العنف الجنسي على الأرجح؟

و. سوفِسكي: نعم، ولكن من المثير للاهتمام ملاحظة أن مشكلة الانضباط لا تنشأ إلا بوجود تهديدٍ دائمٍ بالتجاوز، إذ ثمة ديناميكية كامنة في الفعل الإنساني تدفعه إلى التماس متعة الحرية. فلو كان كل شيء مجرد رتابةٍ أو غارةٍ عابرة، لما وُجدت أصلًا مشكلة في الضبط، بل لكانت المسألة، في أقصى تقدير، مشكلة تحفيزٍ لا غير.

أ.لودتكه: ولكن بطبيعة الحال قد يكون تمثيلًا يُرى من أعلى أو مشروطًا بوجهة النظر المعتمدة، وقد يكون خوفًا وهميًّا، وقد لا يكون الحماس والاندفاع الذاتي منتشرين على نطاق واسع كما يخشى أو يتوقع التسلسل الهرمي الوسيط. يقدم براوننج توضيحًا هنا، إذ تمكن من إثبات أن في هذه المجموعات الصغيرة -في إحدى الحالات تم توظيف ١٧ رجلًا لتدمير حي اليهود في قرية بيلوروسية biélorusse في عام 1942م- لم يتقدم سوى أربعة رجال فقط بطريقة نشطة وديناميكية، وهو ما يتوافق مع الرغبة في التدمير، وكان تسعة أو عشرة عمال بعيدين إلى حد ما وثلاثة أو أربعة لم يشاركوا أو ظلوا مكتوفي الأيدي، ومن بين هؤلاء الأربعة، انتحر أحدهم وقت تلقيه الأمر، فما مدى تجانس هذه المجموعة؟ أحد الانطباعات التي ربما يعززها استخدام الاستعارات هو أن هذه الأفعال متجانسة جدًّا، وفي هذه الحالة، لا يبدو أن الفعل يؤثر على نصف المشاركين، فالأربعة الذين ينشطون على نحو خاص يطلقون النار على عجل في الاتجاهات جميعها، ما يسمح لنصف سكان الحي اليهودي بالفرار نحو الغابة، في حين يتملص الآخرون الأربعة أو يبقون مكتوفي الأيدي.

و.سوفسكي: ألا يطاردونهم؟

أ.لودتكه: إنهم قليلون جدًّا لتحقيق ذلك، إنهم 17 رجلًا، نصفهم على الأقل يتّسم بموقف انتظاري.

و.سوفسكي: ومن ثم هو التكوين (أ) الذي فشلت فيه الصيادة، و(ب) لا تتم مواصلة المطاردة التي هي شرط أساسي لحمى الصيد، بالتأكيد، قالوا لأنفسهم: "لا يمكننا فعل أي شيء بـ17 رجلًا، نحن بحاجة إلى تعزيزات، أو يمكننا أن نوقف العملية، لكن كيف سنشرح لرؤسائنا أنها فشلت؟ من ناحية أخرى، لو كان ثمة 50 مطاردًا، أود أن أرى القوى الدافعة التي كانت ستتطور بعد ذلك. يحكي براوننج

أيضًا عن عمليات الصيد في الغابة حيث يتم البحث عن ثقوب في الأرض وحتى أولئك الذين كانوا سلبيين في البداية يطورون نوعًا من الحِس لاكتشاف أماكن الاختباء، باختصار، لا يمكن أن تتطور حُمّى الصيد إلا إذا حدث الصيد فعلًا وليس إذا تمت مقاطعته.

كرامر: أود العودة مرة أخرى إلى الطبيعة التصويرية لأوصافك، أنا أفكر أولًا في فيتغنشتاين Wittgenstein: نحن أسرى الصورة [21] ربما أنت أسيرها أيضًا؟ تصور القطيع في الصيد، نحن لسنا ملزمين بالتزامها، ولكننا مع ذلك يمكننا أن نرى الأحداث أو نفهمها من خلال الفكرة أو استخدامها في أوصافك الخاصة، أنت تكتب فعلًا بطريقة تصويرية وموحية جدًّا، لكن ألا يجب أن نسأل أنفسنا أيضًا عن مدى ملاءمة هذه الصور للأحداث؟ وأن نسأل أنفسنا أيضًا كيف تتطابق هذه الأفكار مع أفكار الناس عن أنفسهم؟ وهل يرى القطيع في الصيد نفسه قطيعًا في الصيد؟

يضاف إلى ذلك مسألة ما إذا كانت هذه الصورة كافية، في رأيي، يمكننا فقط من الناحية المجازية، اقترحت هذا سابقًا؛ السؤال هو ما إذا كانت الصورة تتوافق مع الظواهر، بعد كل شيء، فإن حروب الغزو، والجولات الكبرى لم تكن بقيادة الصيادين، بل -وهذا أمر كاشف- بقيادة الرعاة، الرعاة والرعاة البدو الرُّحَّل، إذ كانت أعمالهم تتمحور حول مواشيهم التي تحتاج أحيانًا إلى الحماية والرعاية، وأحيانًا أخرى إلى التقريب حتى لا يشرد أي حيوان من القطيع، ولكن أولًا وقبل كل شيء، تعلم الرعاة أسلوب القتل وتجاوزوا حدود القتل الموجودة كلها فعلًا في مجتمعات الصيد مثلًا. يبدو لي أن كثيرًا من الظواهر -لا أقصد الظواهر كلها- التي تصفها بصورة قطيع الصيد يمكن وصفها على نحو أكثر ملاءمة باستعارة الراعي.

سوفسكي: لست متأكدًا إطلاقًا من أن كتاباتي مصورة.

كرامر: على أي حال، إنها أكثر إيحائية من النصوص العلمية لعلماء الاجتماع عادةً.

[21] يتعلق الأمر في صورة اللغة التي يقترحها فيتغنشتاين Wittgenstein في كتاب "التراكتاتوس المنطقي-الفلسفي le Tractatus" والتي سينتقدها في كتابه "البحث الفلسفي :"Recherches philosophiques إذ يرى أن النظر إلى اللغة بوصفها صورةً مطابقةً للعالم يقود بالضرورة إلى أوهام ميتافيزيقية: على الفلسفة بوجه عام أن تكافح العمومية، وأن تعلمنا ألا نرى العالم دائمًا من خلال الرؤية المشوهة نفسها وأن نتعلم رؤية الاختلافات.

سوفسكي: وهذا ليس بالأمر الصعب، ربما يتعلق جانبهم الإيحائي باهتمامي في إبراز العواطف ومشاعر الانتماء في الوصف، وهو أمر نادر في الأدب الاجتماعي، هذا لا يجعل النص مصورًا، بل محض محاولة للانفتاح على أبعاد أخرى.

كما أن الطبيعة الإيحائية للغة قد ترجع أيضًا إلى أن المؤلف يحاول إسقاط نفسه/ها بالخيال في موقف معين[22]، وبعبارة أخرى، حشد التعاطف الذي يجب على كل عالم اجتماع أن يكون قادرًا على إظهاره، إذا أردنا أن نفهم ما يجري، عليك أن تقترب قدر الإمكان، عليك استخدام العدسة المقربة، الأسئلة الأولى التالية: ما الذي يحدث؟ كيف يعمل؟ لا يتضمن الوصف بالضرورة استعارات، حقيقة أن وجود كثير من الأفعال لا يجعل النص مجازيًّا، يجعلها نشطة، خذ مثالًا عن الصيد؛ ثمة الترصد وثمة الصيد بالكلاب، القطيع هو الشكل الاجتماعي للصيد باستخدام كلاب الصيد، الحملات العسكرية للرعاة الرحل أو الشعوب التي تستخدم العربات المسلحة بالمناجل لم تكن بعثات صيد، بل مناورات تهدف إلى التطويق،[...] ووقت محاصرة العدو، يتم إطلاق النار عليه أو أسره بوصفه عبدًا.

كرامر: أو تتم ملاحقة الأعداء إذا فروا.

سوفسكي: بالضبط، وهنا يصبح الأمر مثيرًا للاهتمام لأن التكوين يتغير؛ المحاصرة والإحاطة وتشكيل دائرة حولها، إنه شيء آخر غير المطاردة، ما المثير للاهتمام في التحول إلى المطاردة؟ كان هذا هو السؤال الذي كان كلاوزفيتز Clausewitz يطرحه فعلًا في سياق أوروبي لإدارة المعارك، ثمة القتال والمبارزة ثم تبدأ المطاردة، وكل حملة ناجحة تنتهي بالمطاردة، فقط المطاردة وحدها هي التي تؤدي إلى النصر، في هذه المرحلة تكون كلاب الصيد قد بدأت حين يتم خوض المعركة ومطاردة المهزوم،

---

[22] يستخدم سوفسكي الأسلوب نفسه في كتابي "كتاب العنف *le Traité de la violence*" و"*L'ère de l'épouvante* عصر الإرهاب": حيث يفتتح كل فصل بقصة أسطورية غالبًا تكون مستمدة من الكتاب المقدس، ومشهد عنف متخيل. تعد مقدمة الفصل الثاني من كتاب عصر الإرهاب مثالًا مثاليًّا، حيث يتخيّل سوفسكي ما كان يمكن أن تبدو عليه ثلاثية هيرونيموس بوش (*Jérôme Bosch*) لو كان معاصرًا لعصرنا: "على أحد الجسور، أمسك جنديان برجل من يديه وقدميه وألقيا به من فوق الحاجز في الماء، وأطلق آخر طلقات نارية في النهر حيث كان أحدهم يصارع من أجل النجاة وهو يصرخ، وعلى مسافة بعيدة، كان السكان المبتهجون يجرون جثة متفحمة قليلًا على طول الشارع. في إحدى الساحات، شكل حشد من الناس دائرة حول امرأة شابة تتلوى على الأرض، وبدورهم، يرقص الجميع إلى الأمام للقفز على قفصها الصدري لاختبار قوتها. بين الإطارات المحترقة، نرى رؤوسًا دامية مقطوعة الآذان على اليمين، يمكننا أن نرى فرقة إعدام بالرصاص. في الخلفية، المدينة: صحراء من الأطلال البرتقالية. الآن، كما في السابق، "الجنة خالية le paradis est désert"، فولفغانغ سوفسكي، كتاب عصر الإرهاب، مرجع سبق ذكره، ص 21.

كيف يعمل مع الرعاة المحاربين؟ إذا كان التطويق ناجحًا من الناحية العملية، تكون المطاردة بلا جدوى، ولا تتطور إلا إذا تمكن الخصوم من الفرار، يجب على المطاردين حينئذٍ أن يحثوا حيواناتهم بقوة أكبر، وأن يشجعوا أنفسهم وبعضهم بعضًا: لقد بدأت كلاب الصيد المطاردة.

إن المطاردة تمثل المرحلة الأخيرة من المعركة، إذ إن كثيرًا من الحملات لا تُحرز سوى نصف انتصار لأن المطاردة لم تُستكمل حتى نهايتها، ولم يُستكمل النص حتى ختامه. خذ على سبيل المثال الحرب قبل الأخيرة في العراق عام 1991م.

أ.لودتكه: ثمة دراسات قديمة (يعود تاريخها إلى أربعينيات القرن العشرين، مثل دراسة موريس جانويتز Morris Janowitz وإدوارد شيلز [23] Edward Shils عن جنود الفيرماخت la Wehrmacht، أو -بعد ذلك- دراسة صامويل مارشال[24] Samuel L. A. Marshall عن الجيش الأمريكي في كوريا، إذ ركزت على قضية كيفية خلق الدوافع وتثبيتها في القتال، ووفقًا لهذه الدراسات، فإن الأمر المحوري في تحفيز السلوك العنيف واستدامته هو الألفة مع المجموعة الصغيرة، والعلاقة المباشرة معًا، وكذلك الروابط التي تنشأ بين الرجال، خاصة حين يكون هناك صراع بينهم، خاصةً حين يكون ثمة خطر كبير، تحت النار، حين يكون ثمة خطر حقيقي على الحياة والسلامة الجسدية.

وبسبب التداخل بين العمل الصناعي والجندي (حتى في أثناء الأعمال القتالية!)، فإن مسألة القرب (أو البعد) بين العمل الصناعي والعمل العسكري تشير إلى نوع من اليومية التي تحمل دائمًا معنى فوريًّا، وثمة اختلافات بالتأكيد، لكنني لا أراها قائمة على"الروتين" الذي يفترض أن يكون سمة خاصة للعمل الصناعي، إذ يبدو لي أن هذا الأمر مبني على وهم أن عمليات العمل الصناعي لا تتم إلا على نحو روتيني، وأنها تتميز بالتكرار المنتظم وإمكانية التنبؤ المطلق وجو من البرودة أو الحياد العاطفي، حتى العمل الصناعي له نصيبه اليومي من عدم اليقين والمخاطر، بما في ذلك على الحياة والسلامة البدنية،

---

[23] موريس جانويتز Morris Janowitz، إدوارد أ. شيلز Edward A. Shils، "التماسك والانهيار في الجيش الألماني الفيرماخت خلال الحرب العالمية الثانية Cohesion and Disintegration in the Wehrmacht in World War II"، الرأي العام كواترلي Quaterly، المجلد 12، العدد 2، 1948م، ص 280-315.

[24] صامويل مارشال Samuel L. A. Marshall، تلة بورك تشوبPork Chop Hill. الجندي الأمريكي المقاتل في المعركة The American Fighting Man in Action، كوريا، ربيع 1953م، نيويورك، Morrow مورو ,1953م.

ولا سيما تلك الشكوك التي تنشأ حين يتعين علينا أن نحكم أو نتصرف -على آلة، أو على قطعة عمل، أو على وسيلة نقل- من الفور، وفي كلتا الحالتين، تحتاج إلى البراعة والقدرة على التحمل البدني، وتحتاج أيضًا إلى إثبات قدرتك على التحليل الذهني، لكن الشحنة العاطفية يمكن أن تكون مختلفة جدًّا، حين تسمع صوت إطلاق الرصاص يدوي يمينًا ويسارًا، فإنك تكون معرضًا إلى خطر الموت أكثر كثيرًا مما قد تتعرض له في أكثر أماكن العمل خطورة، عند تنظيف الغلايات، أو الوقوف أمام فرن صهر، أو في كابينة سائق رافعة بناء أو رافعة صناعية.

سوفسكي: لنأخذ مثالًا على فريق دبابة في المعركة، في البداية ثمة ضجيج لا يُصدّق، والناس يصرخون.

لودتكه: مثل فرن الانفجار.

سوفسكي: لا، إنه نوع مختلف تمامًا من التوتر، فنحن نحدد دبابة معادية على بعد ألفي متر، هل تستهدفنا فعلًا؟ ماذا تفعل؟ نحن نجلس في هذه المقصورة ولا يمكننا الخروج، هذا ما يجعل الأمر غير مريح خصوصًا، لا يمكنك أن تجعل نفسك متخفيًا، لكن عليك أن تكون أسرع من خصمك، إنها مسألة حياة أو موت، ليس كما أنك أمام الفرن المتفجر.

يجب أن تعمل المجموعة فريقًا واحدًا، يجب أن يشكلوا فريقًا جيدًا وأن يكونوا مدربين، يجب أن يعرف الجنود بعضهم بعضًا وأن يكونوا قادرين على الثقة ببعضهم بعضًا على نحو مطلق لكي تنجو الدبابة، فالشحنة العاطفية عالية جدًّا، حتى لو كان العدو على بعد ألفي متر، فإن النفسية ليست باردة إطلاقًا.

لودتكه: دعنا نترك جانبًا "برودة" العمل الصناعي، أنا أتحدث عن المنافسة الجماعية، المنافسة بين المجموعات أو بين الأفراد، قد لا تكون المسألة مسألة حياة أو موت، ولكنها مع ذلك مسألة الحفاظ على وظيفتك، وقبل كل شيء التمسك بوظيفتك في ظل الأزمة الاقتصادية، أولًا وقبل كل شيء التمسك بوظيفتك وإثبات ذاتك بمعنى أقل دراماتيكية ووجودية من ذلك، فهي لا تزال مسألة بقاء، الرموز والاستعارات التي تمثل الروتين (أو ربما الانتظار الهادئ والتركيز في الانتظار أمام مكتب

التوزيع أو في غرفة التحكم) التقليل من شأن الوضع الحقيقي وممارسة العمل، على الأقل بالنسبة إلى العمل الصناعي الذي يتطلب جهدًا بدنيًّا كبيرًا حتى منتصف أو نهاية القرن العشرين، ربما تغير هذا الأمر جزئيًّا في العقود الأخيرة في بلدان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، ولكن في الدول الاشتراكية السابقة، فإن الصلة بين العمل والمشاركة البدنية وخطر الإصابة لا تزال حاضرة بلا شك، ولكن بشكل أكثر كثافة وتكرارًا.

سوفسكي: أن مسألة الحياة والموت تظهر في الموقف القتالي بسرعةٍ تفوق كثيرًا مثيلتها أمام فرن الانفجار، فالبعد الدرامي بينهما مختلف تمامًا. ففي بعض أماكن العمل الخطرة قد يحدث كل شيء في لحظات، أما في القتال، فمع أنه يُقال إن كل شيء يُحسم في ثوانٍ، إلا أن التجربة الفعلية تمتد كأنها ثلاث ساعات.

قيل كثيرًا إن الحرب الحديثة لا تقتل إلا عن بُعد، وإن هذا هو السبب في ارتفاع الخسائر البشرية. غير أن الواقع يُظهر أن هناك كثيرًا من التشكيلات التي لا تزال تشبه إلى حدٍّ كبير حروب الماضي، إذ تعاني الوحدات عالية التقنية الخوف نفسه الذي كان يعانيه المحاربون قديمًا. فالطيارون البريطانيون في مهمة فوكلاند (Malouines)، الذين لم يكن عليهم أن يخشوا أي دفاع جوي خطِر مضاد للطائرات من الجانب الأرجنتيني، كانوا متوترين جدًا، رغم خبرتهم الطويلة وتمرسهم. ولا يمكن مقارنة ذلك بموقف العمل، فالتوتر في العمل لا يمت بصلة إلى التوتر في المعركة.

المسلمات الاجتماعية مقابل الظروف الاجتماعية والتاريخية

كرامر: أظن أن التصنيف العالمي للعنف ضروري إذا أردنا أن نكون قادرين على وصف المجتمعات البعيدة، فمفاهيمنا تتكيف فقط مع مجتمعنا، وليس من المفيد جدًّا استخدام مصطلحاتنا لوصف مجتمع آخر، إذ علينا أولًا أن نترجمها، لذلك نحن بحاجة إلى إنشاء مرجعية لغوية، وفي حالتنا هذه ستكون لغة مرجعية للعنف، والسؤال هو ما إذا كان يمكننا تفسير شيء ما بهذا التصنيف.

سوفسكي: بلا شك، ولكن أليس من الممكن تصور التوصل إلى نظرية تتحدث عن مغزى هذه الكونيّات؟ هل ثمة مسلمات اجتماعية؟ بمعنى الأشكال العامة؛ التبادل، والسلطة، والتعاون، والعنف، وما إلى ذلك، هل هذا موجود؟ تعريف ضعيف نسبيًّا لمفهوم البنية الكونية العميقة القول بأن الكونيات لا تظهر بالضرورة في كل الأماكن، فقط في أوقات وأماكن مختلفة، مأخوذة على نحو مستقل، هذه هي الطريقة التي توضح فهم التساؤل الأنثروبولوجي، إنه مشروع تمامًا مثل التفسير المحدد والتاريخي لحالة معينة، حتى إنني أجده أكثر طموحًا، لأنه يشهد على رغبة نظرية في قول شيء عام عن الطريقة التي يوجد بها الإنسان العاقل والرجال فيما بينهم، إنه أكثر من دراسة حالة معينة.

لودتكه: أشعر بأنني مضطر هنا إلى أن أخالفك الرأي، في رأيي، إن الحديث عن حالات تاريخية فريدة من نوعها هو إساءة فهم المقصود بمفهوم التاريخي، فالتاريخ لا يهتم بالحالات التاريخية الفريدة، ولا بوصفها بتفصيل أكبر أو أقل، ولا بتفسيرها، أيًّا كان ما تقصده بالتفسير، بل هو معني بمسألة كيف يمكننا فهم ديناميكيات العمليات والسياقات والانهيارات الاجتماعية التاريخية، أتساءل ما إذا كان - بصرف النظر عن المنظورات التخصصية الخاصة بكل منا- يمكن لمنهجية من حيث الكونية أن تفسر هذه الديناميكيات، إذا كان بإمكاننا أن نرى أن ثمة تبادلًا، وأن ثمة تداخلًا، وأن ثمة تكوينات للعنف أو أنماطًا للعنف في سياقات مختلفة جدًّا، كيف يساعدنا ذلك على استكشاف ديناميكيات العلاقة لاستكشاف ديناميكيات الفعل؟ ما الدور الذي يلعبه العنف في ذلك، وفي أي اتجاه تطور للظواهر؟ هل ثمة أي تغيرات؟ سواء أكان نظام (أ) أو (ب) الذي يطرح هذه الأسئلة، لا يهمني حقًّا.

و. سوفسكي: أنا أتفق معك، ولكن إذا اعتمدنا على هذه المسلمات فإننا نراها أيضًا -إذا لزم الأمر- جزءًا من وجود جنسنا البشري وأشكاله الاجتماعية.

أ. لودتكه: ولكن إلى أي مدى يمكننا توسيع قائمة المسلمات هذه؟

و. سوفسكي: من المحتمل أن يكون توسيع نطاقها بقدر ما لا يكلّ الإنسان من اختراع فظائع جديدة، ومع ذلك فمن المدهش أن نلاحظ أن النزاعات -سواء في العالم القديم أو في غابات الأمازون أو في

القرن التاسع عشر- تتشابه جميعها بطريقة ما، ومثال آخر هو الانتقام، مقارنة بين الثقافات يمكن أن تحدد آليات الانتقام نفسها في كل مكان، فكما توجد أشكال عامة من الفكر أو الفكر الوحشي، ثمة أيضًا هياكل اجتماعية عامة.

أ. لودتكه: ما الذي يمكن أن نتعلمه من هذا؟

و. سوفسكي: أظن أنها خطوة كبيرة إلى الأمام.

أ. لودتكه: مع أو ضد ماذا؟

و. سوفسكي: لإجابة عن سؤال «ما الإنسان؟»؛ ذلك السؤال الذي يُعدّ جوهر الأنثروبولوجيا ومحورها الأساس.

ف. كرامر: إذا أردنا تطوير نظرية قائمة على التصنيف، فعلينا أن نقول تحت أي ظروف يظهر نوع معين أو لا يظهر، الظروف التي يتجلى فيها نوع معين أو لا يتجلى في ظلها، بالنسبة إلى التصنيف الخاص بتفادي العنف.

و. سوفسكي: سيكون هذا هو الحال إذا ابتدأنا من افتراض أن ثمة شروطًا كافية وضرورية للعنف أو أي فعل إنساني، يمكننا أيضًا أن نبدأ من نقطة انطلاق أخرى هي أننا نستطيع أن نتوقع أي شيء من الأفعال البشرية.

ف. كرامر: نعم، لكنها ليست نظرية سليمة جدًّا.

و. سوفسكي: ستساهم في خيبة الأمل والاستجلاء.

ف. كرامر: نعم، أنا لست ضد ذلك، ولكن ربما لا ينبغي أن يشعر القارئ بخيبة الأمل...

أ. لودتكه: ما الذي سيحدث...

و. سوفسكي: كلا، ترتبط الدراسة العلمية للعنف في أحيان كثيرة بالآمال في القدرة على تحديد الظروف المسببة للعنف؛ إذا قضيت على هذه الظروف، فإنك تقضي على العنف في الوقت نفسه،

في رأيي، هذا هو دافع كثير من زملائنا المختصين في مجال العنف، لكن هذا قد يكون وهمًا، لأنه ليس ثمة سياق معياري ولا ظروف معيارية أو غيرها، فبين السياق والفعل، ثمة فجوة كبيرة، إذ يميل العنف إلى خلق ظروف جديدة أكثر من نشوء ظروف قديمة، ولكن إذا كان ما قلته للتو صحيحًا، فإنه يدعو إلى التشكيك في البرنامج العلمي للتفسير بأكمله الذي لا يزال يعتمد على السببية.

ف. كرامر: لكن من منظور تاريخي، ستبدو الأمور مختلفة، لأن ثمة مجتمعات ولحظات تاريخية تخلو نسبيًّا من العنف ولحظات أخرى ينتشر فيها العنف في كل مكان، هذا خارج نطاق النظرية التي ناقشناها للتو، إذا بدأنا من المسلمات الأنثروبولوجيا، يجب ألا نقتصر على تلك الخاصة بالعنف، وفي الوقت نفسه، يجب أن ننظر إلى الاستراتيجيات التي تمكّن الناس من الحد من العنف.

و. سوفسكي: بطبيعة الحال، لا يمكن للأنثروبولوجيا الاجتماعية أن تقتصر على أنثروبولوجيا أشكال العنف، فثمة أيضًا أشكال من التعاون أو الصراع التي تتسم طرائقها بالسلام، وثمة أيضًا السيطرة الاجتماعية الهائلة، والسلطة والانضباط القائمان على احتواء العنف، أحيانًا، يمكن أن تبدو هذه المجتمعات مسالمة جدًّا، حتى المرة التالية.

أ. لودتكه: اسمحوا لي أن أدلي بتعليق: ما أجده مهمًّا في هذا المنظور ليس المثاليات، بل التطورات طويلة الأمد التي يمكن أن تحدث على مر الزمن، إنّها ليست مسألة تمثيلات يمكن أن تكون أعمال عنف أو تأخذ شكلًا ملموسًا في العنف، أنا أفكر في نشأة المجازر أو الطريقة التي تتم بها عمليات الاعتقال، علينا أن نرى ما إذا كانت ديناميكية محددة لا يمكن تحليلها بوصفها نتيجة لظروف بنيوية أو الظروف الهيكلية أو الوظيفية، مثلًا وجود الدولة أو غيابها، القدرة المطلقة أو خيال القدرة المطلقة لأمير ما.

ويزداد هذا الأمر أهمية لأن الفكرة التفاؤلية عن التحديث كانت سائدة منذ مدة طويلة بين عامة الناس وبين زملائنا، كما لو أن العنف مرتبط بالمجتمعات "البدائية"، التي هي نتاج مجتمع ما قبل الحداثة، وأنه على العكس من ذلك (كما في التقدمية والاشتراكية في القرنين التاسع عشر

والعشرين)، كلما أصبحت التفاعلات الاجتماعية أكثر حداثة كلما كانت أقل عنفًا، هذه الأفكار كان لها تأثير هائل حتى الآن، خاصة بين المؤرخين، ولا يزال من المهم نقدها.

ف. كرامر: هل يجب أن نودع فلسفة التاريخ؟

أ. لودتكه: نعم، في هذه الحالة.

ف. كرامر: لكن توديع فلسفة التاريخ لا يمكن ولا يجب أن يؤدي إلى افتراض أن كل شيء ممكن في كل زمان ومكان، ومن الواضح أن هذا ليس هو الحال، فقد لا يكون من الممكن تفسير أين ومتى سيكون ثمة عنف، لكن يمكن للبحث أن يقدم الأشياء بطريقة منطقية، إذ يمكن للبحث أن يقدم الأشياء بطريقة تجعلنا نقول لأنفسنا: "والآن قد فهمت"، الكونية وحدها غير قادرة على ذلك.

و. سوفسكي: السؤال الأصعب هو مسألة ظهور ظواهر جديدة حقًّا، مثل الهجوم الانتحاري في الوقت الراهن؛ إذ يمكننا بسهولة تتبّع بداية هذا النموذج من الفعل لكتابة تاريخٍ للتفجيرات يُظهر الانفصال الجوهري بين طياري الكاميكاز kamikazes اليابانيين والمقاتلين الفلسطينيين: مبدئيًّا كان الهجوم الانتحاري تكوينًا قتاليًّا، في حين أن العنف الآن يُستخدم أمام المتاجر الكبرى ضد المدنيين الذين ليست لديهم أدنى فكرة، من اليابان إلى كوريا، ومن إيران إلى لبنان، يمتدّ مسار طويل من التحولات التاريخية التي شكّلت ملامح العالم الحديث. ولكن ماذا نعرف أكثر عن هذه الظاهرة بعد أن قلنا ذلك؟ هل جعلناها واضحة؟

أ. لودتكه: بالتأكيد لا.

ف. كرامر: سأجيب بنعم إذا عرفنا السير الذاتية، والظروف الاجتماعية، ولكن إذا عرضنا طرائق القنوات الإذاعية فقط، لا يمكن فهم أعمال العنف، أو بالأحرى وصفها، إلا في ظروف تاريخية محددة، نحن بحاجة إلى معلومات عن البنية الأسرية وآفاق المستقبل والتوقعات المستقبلية للحياة الآخرة، حينئذ، أي تفسير غير ضروري.

و. سوفسكي: مثل هذا الجهد ليس ضروريًّا حتى، فأول هجوم من هذا النوع في الشرق الأوسط قد استهدف مطار اللد (Lod)، ونفّذه أفراد من "الجيش الأحمر الياباني" المتحالف آنذاك مع فصائل من المقاومة الفلسطينية. وقد أثار ذلك الحدث ردود فعل متباينة؛ إذ علّق القذافي ساخرًا بقوله: «أتستعينون باليابانيين لتقاتلوا نيابة عنكم؟ ألا تستطيعون أن تفعلوا ذلك بأنفسكم؟». بعد ذلك، حاولت مجموعات يسارية صغيرة أن تحاكي تلك العملية بوصفها شكلًا من أشكال التضامن الأممي مع القضية الفلسطينية ومناهضة الاستعمار. كانت تلك الجماعات ذات توجهات علمانية في الأساس، إذ لم يكن البعد الديني حاسمًا في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ العمليات الفدائية. ولتفسير ذلك، ينبغي النظر إلى البنية السياسية والاجتماعية للمقاومة الفلسطينية آنذاك، وإلى طبيعة التحالفات والتنافسات داخلها، لا إلى الدوافع الدينية التي ستبرز لاحقًا في سياقات مختلفة.

أ. لودتكه: استأنف موضوع المقاومة الفلسطينية، ولكن أود أن أوسّع نطاقه ليشمل قضية عنف الاحتلال -هذه المرة عنف الحرب العالمية الثانية، مسألة عنف الاحتلال- بالنسبة إلى المحتلين، لم تكن أعمال العنف تجاه الأراضي المحتلة واضحة ولا متجانسة كما تفترض التصنيفات دائمًا، وأجد أن هذه مشكلة حقيقية، مثل بعض الأعمال التي كتبها ثيو شولت Theo Schulte[25] عن المنطقة الخلفية للجبهة في الاتحاد السوفيتي URSS، وعلى العكس تبين أن القضية واسعة النطاق، إنها الحجة نفسها التي ذكرتها سابقًا عن براونينج: يمكننا أن نرى مجموعة واسعة من المسارات التوجيهية التي لم تتألف فقط من أنماط مختلفة من العنف، بل أيضًا على السلوك العنيف وغير العنيف تجاه المحتلين، وهذا لا يعني أن منظومة الاحتلال لم تفترض تشجيع أعمال العنف ولا التستر عليها، ويتعلق هذا الأمر بحقيقة أنه -وفقًا لشولت- أتيحت الفرصة لكثير من أفراد الجيش الألماني في الموقع أو رأوا واغتنموا (أو حتى خلقوا) فرصًا لعدم التصرف بعنف، ربما أدى ذلك إلى ظهور الإدراك (ولاحقًا الذاكرة) بأن الأمر لم يكن بهذه الجدية، هذا الإدراك بالذات يضمن الاحتلال، وعلى نحو أكثر واقعية ربما كان له تأثير مباشر على الرغبة في المشاركة، أو حسب تعبير ماكس ويبر Max Weber، على "الخضوع للنظام

[25] ملاحظة المحرر، من دون شك يتعلق الأمر بـ ثيو شولت، "الجيش الألماني والسياسات النازية في روسيا المحتلة *The "German Army and Nazi Policies in Occupied Russia*, أكسفورد Oxford، بيرج للنشر Berg Publishing 1988م.

القائم"[26]، ربما كان التنوع (النسبي) للإمكانيات هو بالنسبة إلى كثير من الناس أحد الشروط الفردية لـ"الاستمرار في المشاركة"، بما يتجاوز القناعات السياسية والأيديولوجية وحساب المصلحة الذاتية، لنفترض وجود نسب أخرى من المشاركين (غير الراضين أو المتحمسين) وغير المشاركين كما في حالة براوننج، ففي هذه الحالة، يمكن أن يكون لكثرة المشاركة عواقب كبيرة -من الفعل عمومًا- تعتمد دائمًا على الحالة الاجتماعية الواقعية، على الفرد.

و. سوفسكي: إذا تحدثنا عن المسلمات، ليس من الضروري أن يتصف الرجال جميعًا بالعنف، بإمكانهم أن يكونوا عنيفين في أي زمان ومكان لأي عدد من الأسباب، لا ترتبط المسلمات بـ"الثوابت الأنثروبولوجيا" التي لها سمعة سيئة جدًّا، مثل الغريزة العدوانية القديمة.

أ. لودتكه: لكن ألا يتعلق الأمر أيضًا بمسألة استقصاء الاحتمالات -تحليل المواقف بديناميكيتها المحيطة بها- مثلًا، غالبًا يكون ثمة تدريب للقطيع أكثر من غيره؟

و. سوفسكي: لا، إطلاقًا لم أفكر في هذه المصطلحات في القضية، كما يقولون الأسباب ليست مشكلتي، أنا مهتم بعمليات التطور الديناميكية الذاتية للعنف، وبعبارة أخرى، بما يحدث حين يتم تنفيذ فعل ما، مهما كانت ظروفه الطارئة، قد بدأت التفكير في مسألة كيفية استغلال البشر للفرص لارتكاب العنف، إذ تستنتج الأبحاث في مجال العنف عادةً علاقات متبادلة بين معدل العنف والظروف الاجتماعية، أو تتتبع مسارات الجناة. براونينج لا يهتم بالعنف في ذاته، فمن الغريب سرد الأسباب التفسيرية من دون توضيح ما يحتاج إلى تفسير أولًا، ومع ذلك، أخشى أنه ليس ثمة مسار واحد يمكن تحديده منهجيًّا ويقود إلى العنف.

[26] ملاحظة المحرر، انظر: ماكس ويبر، Gesammelte Aufsätze zur Wissenschaftslehre، شتوتغارت، موهر-سيبيك، 1988م [1921م]، ص 581.